

أحمد قاسم حسين | Ahmed Qasem Hussein *

مراجعة كتاب: «مِل» للمؤلف: فريدريك روزن

Book Review

(Review of the Arabic Translation)

Mill

by Frederic Rosen

الكتاب:	مِل.
المؤلف:	فريدريك روزن.
ترجمة:	عاطف يوسف سليمان.
الناشر:	المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
سنة النشر:	2017.
عدد الصفحات:	447 صفحة.

* باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، مختص في العلاقات الدولية.

Researcher in the Arab Center for Research and Policy Studies, specialized in International Relations.

مقدمة

مسبق عن عالمنا، لذا في كتابه المنطق ميّز بين الاستدلال المنطقي والاستدلال الواقعي؛ إذ إن الاستدلال المنطقي اللفظي لا يقدم بحسب رأيه أي معلومات واقعية عن العالم⁽²⁾. لقد شهد مل نفور الفلسفة الحديثة والعلم بأكمله من القياس المنطقي، بوصفه لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة؛ فالنتيجة المستخلصة من مقولة «سقراط فان» كانت موجودة ضمناً في عبارة «كل البشر فانون». وكان رفض الفلاسفة المحدثين القياس المنطقي لمصلحة تأكيد الاستقراء، وعادة يعزى الفضل في ذلك إلى فرانسيس بيكون، من خلال بحث الطبيعة بواسطة الاستقراء. في هذا الصدد رأى مل أن يكون لم ينبذ القياس المنطقي، لكنه انتقد الفلاسفة المدرسين في العرف الأرسطي؛ إذ إنهم يفتقرون إلى البحث في الطبيعة. بعبارة أخرى، إهمالهم المنطق الاستقرائي. وفي رأي مل فإن المعرفة تأتي من التجربة، وكل برهان لا بد أن ينتقل بالضرورة من واقعة إلى أخرى. كما ينكر مل الحقائق التي نعرفها والتي تأتي بصورة قبلية؛ لأن المعرفة تتكون من استقراءات التجربة.

لقد بدأ مل عام 1830 في كتابة أفكاره في المنطق، خصوصاً ما يتعلق بالمصطلحات والفرضيات ومغزاها، وتعمّق في مشكلة الاستقراء، مؤجلاً الاستنتاج، ومنطلقاً من أن الضرورة تقتضي حيازة مقدمات منطقية قبل أن يصبح المرء قادراً على البرهنة عليها. والآن فإن الاستقراء، من حيث الأساس، عملية تحدث من أجل العثور على أسباب التأثيرات. فقد لاحظ مل سريعاً أننا نصعد عن طريق التعميم انطلاقاً

صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في سلسلة «ترجمان» كتاب مل للمؤلف فريدريك روزن، وقد ترجمه إلى اللغة العربية عاطف يوسف سليمان. يقع الكتاب (447 صفحة من القطع الوسط) في ثلاثة عشر فصلاً، موزعة على ثلاثة أقسام، تسبر الفلسفة الاجتماعية والسياسية عند جون ستيوارت مل⁽¹⁾، الذي يُعدّ واحداً من أهم فلاسفة بريطانيا في القرن التاسع عشر. تأثر مل بجيرمي بنتام وجوزيف بريستلي، وعاصر في شبابه الفيلسوف ديفيد هيوم، واطّلع على منهجه التجريبي وما تركه من تأثيرات في جميع الفلاسفة في أوروبا، وتحديداً إيمانويل كانط.

في نسق المنطق

قدّم الكاتب في القسم الأول من الكتاب «المنطق» قراءات مل لكتابات هوتيلي وفرانسييس بيكون. ومن بين الأفكار والقضايا التي اجتذبت مل دفاع هوتيلي عن القياس المنطقي الذي عدّه ركنًا مهمًا في المنطق التقليدي، ولاستكشاف الحرية، لا سيما أن مل فيلسوف تجريبي لا يعتقد في وجود معلومات مؤكدة على نحو

(1) جون ستيوارت مل John Stuart Mill: فيلسوف واقتصادي إنكليزي، ولد في لندن في 1806/5/20، وترعرع على مبادئ والده جيمس مل، كما تأثر بفكر جيرمي بنتام. درس اليونانية وهو في الثالثة من عمره، واللغة اللاتينية في الثامنة، والاقتصاد والمنطق في الثانية عشرة، وتُعدّ من كبار دعاة مذهب النفعية. لم تقتصر كتاباته على النظرية السياسية، بل شملت أيضًا المنطق والإبستمولوجيا. وكان لنظرياته السياسية عن الحرية والمرأة والعدالة والحكومات النيابية شأن في إعطاء دفعة تجاه مبدأ التسامح وفكرة المساواة. لمعرفة المزيد عن جون ستيوارت مل انظر: فريدريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، مج 8: من بنتام إلى رسل، ترجمة محمود سيد أحمد، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009)، ص 21-84.

(2) John Skorupski, «Mill on Language and logic,» in: John Skorupski (ed.), *The Cambridge Companion to Mill* (Cambridge: Cambridge University press, 1998), p. 35.

أن تتعايش، وأن يتحقق الإصلاح السياسي، خصوصاً أن السياسة بحسب اعتقاده لا بد أن تكون علماً استنتاجياً⁽⁶⁾.

زد على ذلك أن منهج مل في الإصلاح يبدأ بتهيئة الجماهير كي تتلقى الإصلاح الجاري وتدعمه؛ إذ رأى أن أفكار النخبة المثقفة من جيل ما هي ما سيهيئ أذهان الجماهير عموماً كي تتحقق من منافع الإصلاح والتقدم وفوائدهما في مؤسسات وممارسات بعينها. كما يعرض الكاتب التصورات النقدية التي قدّمها مل لمفهوم علم السياسة التقليدي، ويركّز على التغيرات الدستورية المجردة مثل الملكية، والأرستقراطية، والديمقراطية. وقد أورد مل في كتاب المنطق فقرة ينتقد فيها بشدة الحالة التي كان عليها علم السياسة؛ إذ قارن دراسة الشؤون السياسية بتلك المتعلقة بالطب، قبل أن تُدرج الفيسيولوجيا والتاريخ الطبيعي فروعاً في المعارف العمومية، فكتب: «ولهذا حاول طلاب السياسة أن يدرسوا علم الأمراض 'باثولوجيا' وعلم مداواة الجسم المجتمعي، قبل أن يرسوا القواعد الضرورية لفيزيولوجيته، كي يعالجوا المرض من دون أن يستوعبوا قوانين الصحة. وقد كانت النتيجة ما يحدث عندما يحاول الناس - حتى ذوو القدرة منهم - أن يتناولوا القضايا المعقدة قبل أن تؤسس حقائقها الأكثر بساطة وبداهية»⁽⁷⁾. انتقد مل على نحو خاص أولئك الذين تحاشوا الدراسة المتأنية للتداعيات الشاملة في السياسة، واتجهوا رأساً إلى تطوير المبادئ الشاملة المبنية على تطبيق شكل واحد للحكومة وعلى المجتمعات كلها وفي

من الجزئيات، فنصل إلى اتجاهات الأسباب مأخوذة كل على حدة، ثم نستنتج نزولاً من تلك التوجهات المنفصلة، فنصل إلى أثر الأسباب نفسها عندما تجتمع⁽³⁾.

يحاول الكاتب تطبيق أفكار مل عن الحقيقة وحرية التعبير وفهمه الحرية والديمقراطية في عمليته عن الحرية وتأمّلات في الحكم النيابي. لذا يتناول الكاتب مفهوم مل لمنطق علم الاجتماع والسياسة، على أن نقطة البداية فيه ليست المنطق نفسه، وإنما ما سمّاه الكاتب «أسلوب مل في الإصلاح»⁽⁴⁾. وفي هذا الصدد يقول مل: «شعرت أن السياسة لا يمكن أن تكون علم تجربة بعينها، وأن الاتهامات الموجهة إلى النظرية البنثامية من حيث أنها نظرية، ومن حيث أنها تقدم نفسها 'بداهية' من خلال منطقتها العام نفسه بدلاً من أن تخضع للتجربة البيكونية، تفضح جهلاً كاملاً بالمبادئ التي وضعها ليكون، وكذلك تفضح جهلاً بالشروط الضرورية للدراسة التجريبية»⁽⁵⁾. لقد مثّل المحيط السياسي الذي عاش فيه مل، والذي وُسم بالتعارض بين القوى السياسية داخل البرلمان والأحزاب السياسية والتعامل مع أحوال العمال، عنصراً أساسياً في صياغة مبادئه والإصلاحات التي اقترحها في كتابه التأمّلات؛ إذ استخدم التعارض ما بين الليبراليين والمحافظين، كي يبيّن أن المواقف المتناقضة التي يبدو أنه لا سبيل إلى التوفيق بينها يمكن على الرغم من كل شيء

(3) جون ستيوارت مل، سيرة ذاتية، ترجمة الحارث النبهان (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 2015)، ص 125.

(4) فريدريك روزن، مل، ترجمة عاطف يوسف سليمان (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 23.

(5) مل، سيرة ذاتية، ص 124.

(6) المرجع نفسه، ص 126.

(7) روزن، ص 122.

مشترك. وهي نص فريد بفضل التأثير المتبادل غير المعتاد بين كونت ومل، وهو ما يستحضر إلى الذهن صيغة المحاورات الأفلاطونية، عدا أن انتصار «سقراط» ممثلاً في مل لا يتناغم مع «أفلاطون» كونت.

أضف إلى ذلك أنها تزودنا برؤية ثاقبة لمدخل فلسفة مل، وعلى نحو خاص كتاباته الفلسفية؛ إذ يعبر مل في أولى الرسائل عن فضل كونت على كتاباته الفلسفية والفكرية، وقد أشار إليها بكثير من الإكبار. وكان مل قد انتهى حينها من كتاب المنطق، لكنه لم يكن متحمساً لنشره، رغبةً منه في عده عملاً مؤقتاً يلائم الشخصية الإنكليزية وقتها، وتفرغاً من أعمال كونت التي عرفت علم الفلسفة المدركات الحسية الوضعية. لا سيما أن مل طالع المجلد الأخير من كتاب كونت المحاضرات، فاقتفى أثر كل ما وجدته ذا قيمة فيه، وضمّنه في آخر أجزاء كتاب المنطق عن علم الاجتماع.

وبالنظر إلى الفروق العديدة بين الفيلسوفين، ما إن نشر مل كتاب المنطق، حتى بدا أقل تحمّساً للمساهمة في حركة كونت، وألهمه احترافه الاقتصاد السياسي مشروعاً فكرياً ليس من الضروري ربطه بعمل كونت، فضلاً عن ذلك فقد مكّنه ذلك من العودة إلى جذوره الأولى المتمثلة في أفكار بنثام وأبيه جيمس مل. وفي هذا الصدد يقول مل في مذكراته: «كان اشتغالي على 'الاقتصاد السياسي' أكثر سرعة من اشتغالي على كتاب 'المنطق'، بل كان في واقع الأمر أكثر سرعة من عملي على أي موضوع آخر يتسم ببعض الأهمية. بدأ العمل في خريف العام 1845 ثم صرت جاهزاً للدفع به إلى المطبعة قبل نهاية العام 1847»⁽⁹⁾.

(9) مل، سيرة ذاتية، ص 183.

الأزمان كلها. لذا ركّز عنايته في كتاب التأملات على أفضل التدابير التي من شأنها أن تيسر للمجتمع مهمة تحقيق الأهداف التي أوردتها في بحثه، باعتبارها أهدافاً مثالية لأي مجتمع، وهي الأهداف المنطوية على تطوير الفضيلة والعقل في الشعب. أمّا نوع الحكم الذي يكون أشدّ ملاءمة لتحقيق ذلك الغرض فإنه يختلف، بحكم الضرورة، بين مجتمع وآخر، بالنسبة إلى مدى تطور المواطنين. ورأى مل أن نظام الحكم النيابي هو أفضل الأنظمة لتنمية مصالح الشعب والدفع بها إلى الأمام، على أن يعمل نظام الحكم النيابي على صياغة حقوق جميع مكونات المجتمع⁽⁸⁾.

الافتتان بكونت

تتجلى في القسم الثاني من الكتاب أهمية عالم الاجتماع الفرنسي وصاحب الفلسفة الواقعية أوغست كونت Auguste Comte في فكر مل بصفة عامة؛ إذ يركّز على دراسة المراسلات المتبادلة بين مل وكونت. فقد بحث مل لدى كونت عن منظومة فلسفية تمكّنه من دحر المنظومات الميتافيزيقية المستوحاة من الأمان، أو مذهب الحدسية الذي كان يدعم أكثر الأعمال الفلسفية وقتها في بريطانيا. من هنا نعت أهمية الاتفاق بين الاثنين على ماهية الفلسفة الوضعية بوصفها منظومة فلسفية. وبناء عليه، فإن المراسلات بين مل وكونت تحتوي على جوانب عديدة جدية بالاهتمام والعناية؛ إذ يمكن أن تُعدّ عملاً أدبيّاً في حد ذاتها، كتبها الفيلسوفان خلال عدد من السنوات من دون نية واضحة منهما لإنتاج عمل

(8) جون ستيوارت مل، الحكومات البرلمانية، ترجمة إميل الغوري (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 25.

مبادئ الاقتصاد السياسي

عرج الكاتب في هذا القسم على «مبادئ الاقتصاد السياسي» في فكر مل، وبداية انشقاقه عن كونت وعودته إلى حظيرة بنثام، فقد حقق كتاب المبادئ نجاحًا باهرًا، وعكس رغبة الجمهور في كتاب من هذا النوع، وأنه كان مستعدًا له؛ فقد اشتملت الطبعة الأولى عام 1848 على ألف نسخة بيعت كلها في أقل من عام، ثم صدرت نسخته الثانية في ربيع عام 1849، وأعقبها في عام 1852 طبعة ثالثة من 1250 نسخة⁽¹⁰⁾. وكان كتابًا مرجعيًا يستشهد به، فلم يكن كتاب علم مجرد فحسب، بل تطبيقياً، تعامل مع الاقتصاد السياسي على أنه جزء من كل أكبر: فرع من فروع الفلسفة الاجتماعية. استخدم مل المنطق الفلسفي ليرسم معالم نظرياته الاقتصادية. وما يميز الكتاب هو قدرة مل على الجمع والتوفيق بين النظريات ورؤى عدد من المفكرين أمثال آدم سميث وديفيد ريكاردو وتوماس مالتوس، إضافة إلى تأثيره بسان سيمون، وبرودون، وفورييه. ومن الواضح أن مل قد ارتكز في كتاب المبادئ على هؤلاء المفكرين لرسم معالم نظريات اقتصادية ذات سمات تقدمية واشتراكية لا شك فيها⁽¹¹⁾.

لقد طور مل فكرة مختلفة عن الحرية في كتاب المبادئ، ومثلها في صورة دائرة تحيط بكل إنسان، الهدف منها تقليص ما سماه «تدخل الحكومة الاستبدادي» مع السماح بتطوير «التدخل غير الاستبدادي»، وصاغ هذه الصورة

(10) المرجع نفسه، ص 184.

(11) إبراهيم العريس، «مبادئ الاقتصاد السياسي لستوارت ميل: نحو تثبيت الدولة»، الحياة، 2016/4/13، في: <https://goo.gl/qCWyFj>

بالتوفيق بين رأيين متعارضين فيما يتعلق بمبدأ عدم التدخل الذي يعني حرية الحكومة في التدخل في الحالات التي يرجى منها فائدة، وأن دائرة تدخل الحكومة تحددها بصرامة حماية الشخص وممتلكاته ضد العنف والاحتيال. كما يعرض الكاتب مدخل مل إلى الحرية المدنية التي يمثل الأمان مؤشراً عليها، وهي فكرة استفها من بنثام؛ إذ كانت فكرة بنثام تشمل الحرية الفردية في الفعل التي يحميها القانون والحكومة، ما دامت لن تؤدي إلى الإضرار بالآخرين. ففي نقاشه حول الحرية في كتاب المبادئ، أدخل مل مصطلح الأمان في سياق مناقشته المؤشرات المحددة للإنتاجية في مجتمع ما، وبعد تناوله الشروط الطبيعية وقدرة العمال ومستوى معارفهم ومهاراتهم، والذكاء والمستوى الأخلاقي والصدقية في المجتمع، كتب مل في هذا الإطار: «وإنما أعني بالأمان اكتمال الحماية التي يسبغها المجتمع على أفرادها، وهي تتكون من الحماية التي تكفلها الحكومة، والحماية من الحكومة ذاتها، إنما الأخيرة هي الأهم»⁽¹²⁾.

كما تناول رحلة مل الفكرية إلى الاشتراكية، فإذا كانت الحرية المدنية تفضي إلى الديمقراطية النموذجية، التي يأمن الناس فيها على حياتهم وممتلكاتهم باختيارهم ورفضهم حكاهم، فإن الحرية الاجتماعية تؤدي إلى صورة غير مألوفة من الاشتراكية. يقول مل في مذكراته: «كان لا بد لتوجهاتي الجديدة من تأكيد في بعض النواحي ومن تعديل في نواح أخرى. على أن التغيرات الأساسية التي كانت آرائني ماضية إليها كانت متصلة بالسياسة، ومؤلفة مما يختص بالأفاق

(12) مل، سيرة ذاتية، ص 214.

النهائية لسير البشرية صوب اشتراكية تليق ببني البشر»⁽¹³⁾.
وفي الختام، سلّط الكاتب الضوء على بحث ملّ إخضاع النساء، بوصفه واحداً من أهم أعماله، ليس لأنه أكثرها راديكالية وعمقاً في الكتابة الاجتماعية فحسب، بل لأنه عمل جمع الأغلبية الغالبة من الأفكار المحورية لفلسفته في الأخلاق. فقد أصرّ ملّ على أن خضوع النساء هو في ضوء التاريخ، ببساطة، ليس إلا لوناً من ألوان الاسترقاق، وجاهد لتحطيم هذه المعتقدات. فقد انتهت الحرب الأهلية الأميركية قبل نشر بحثه إخضاع النساء بأربع سنوات فقط، ومن ثم ناقش العديد من التقاليد ذات العلاقة بالعبودية، ولا سيما عبودية الأفارقة في العالم الجديد بعد إلغائها. ورأى ملّ أن الوقت قد حان لإعادة النظر في الأعراف ذات الصلة بالاسترقاق التي توصل قيم استعباد النساء. وفي الفصل الأول من كتابه إخضاع النساء يعترف منذ البداية بصعوبة مناقشة قضية المرأة أو الحديث عنها؛ فهي قضية تتلخص في إدانة المبدأ الذي ينظم العلاقات الاجتماعية القائمة بين الجنسين، والكشف عن أنه مبدأ فاسد من جذوره؛ لأنه يقوم على أساس تبعية أحد الجنسين «النساء» للجنس الآخر «الرجال»، وهو مبدأ يجب هدمه ليحل محله مبدأ المساواة الكاملة التي لا تسمح بوجود ميزة لجانب على آخر. يقول في مقدمة كتابه: «المبدأ الذي ينظم العلاقات الاجتماعية بين الجنسين (الذكور والإناث) ويجعل خضوع أحد الجنسين للآخر عملاً مشروعاً، هو مبدأ خاطئ في ذاته. كما أنه يمثل عقبة أمام التقدم البشري، ومن ثمّ ينبغي أن يزول ليحل محله مبدأ

المساواة التامة، الذي لا يسمح بوجود سلطة أو ميزة في جانب وعجز وعدم أهلية في جانب آخر»⁽¹⁴⁾.

خاتمة

كان ملّ فيلسوفاً عقلياً راديكالياً ومن كبار فلاسفة المذهب الوضعي. ولا يستطيع أحد أن ينكر مكانته، بوصفه فيلسوفاً من فلاسفة التحرر في القرن التاسع عشر. وإذا كان بعض الشراح يذهبون إلى أن آراءه لم تعد الآن ملحّة كما كانت في الماضي، مع الإشارة إلى أنه لا يمكن الحكم على أفكاره اليوم لأنها تتسم بنوع من الرجعية، خاصة أن ملّ عاش ضمن فضاءات ثقافية وفكرية اعتمدت في دراسة التاريخ مقارنة نظريات الأعراق والسلالات البدائية، وانزلت البحوث التاريخية نحو عنصرية مركزية تنظر إلى الآخر من موقع الأعلى إلى الأدنى وتربط الحضارات بنوعية الأعراق، وتقرأ الاختلاف من زاوية طبيعة السلالة ولونها ودرجة تطورها، إذ لم يوفق في حصر مبدأ الديمقراطية في شعوب أوروبا الشمالية وأميركا، إلا أن أفكاره تبقى ضرورية في فهم تطور الأفكار السياسية حول النظم الديمقراطية ومسألة الحرية الفردية، وتطور الحركة العمالية وحققها في تأسيس الاتحادات المهنية والنقابات العمالية، وتقليل تدخل الحكومة في شؤون الاقتصاد.

(14) جون ستيوارت ملّ، استعباد النساء، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 2009)، ص 36.

(13) المرجع نفسه، ص 150.

References

المراجع

العربية

- روزن، فريدريك. مل. ترجمة عاطف يوسف سليمان. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.
- كوبلستون، فريدريك. تاريخ الفلسفة. من بتام إلى رسل. ترجمة محمود سيد أحمد. مراجعة إمام عبد الفتاح إمام. مج 8. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009.
- مل، جون ستوارت. استعباد النساء. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 2009.
- _____ . الحكومات البرلمانية. ترجمة إميل الغوري. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.
- _____ . سيرة ذاتية. ترجمة الحارث النبهان. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 2015.

الأجنبية

- Skorupski, John (ed.). *The Cambridge Companion to Mill*. Cambridge: Cambridge University press, 1998.